

اختلاف الآراء

مقال للدكتور حامد طاهر

ترجع معظم مشكلات الأفراد والدول في العالم المعاصر إلى الاختلاف في الآراء ، وما يتبع ذلك من اتخاذ مواقف رفض أو ازدراء أو إقصاء من الشخص أو البلد المخالف بل قد يصل الأمر إلى حد العداء المبرد أو المساخن .

لذلك كان من الضروري أن نتأمل قليلا في أسباب اختلاف الآراء ، وهي متعددة ومتنوعة . فبعضها يرجع إلى قانون المصواب والخطأ ، وبعضها تتدخل فيه عوامل سيكلوجية كالحقد والحسد والغيرة ، وبعضها يرتبط أساسا بأهواء ومصالح شخصية واجتماعية .

ولو أننا حاولنا أن نتجرد من هذه العوامل كلها — باستثناء قانون الصواب والمخطأ — لأمكننا أن نقضى بسرعة على الاختلاف، بل وأن نحوله إلى اتفاق بفضل اللجوء إلى قانون الصواب والمخطأ، الذى يقوم على أساس الاحتكام إلى التجربة العلمية. وهذه هى التى تقرر أى الآراء هو الصواب وما سواه هو المخطأ.

ولتبسيط هذا العرض النظرى دعنى أقدم لك مثالاً قريباً: فإذا ذهبت إلى أن هذا الشيء لونه أبيض، والدعيت أنا أنه أسود، فمن الممكن أن نظل مختلفين فيما بيننا إلى وقت طويل، وربما إلى ما لا نهاية، لكننا إذا لجأنا إلى معمل ألوان فإن نتيجة الفحص هى التى ستحسم الأمر، وينتهى الاختلاف.

ومشكلتنا فى مصر والعالم العربى أننا ما زلنا بعيدين عن الاحتكام إلى التجربة العلمية التى هى جوهر التقدم العلمى والفكرى فى كل المجتمعات المتقدمة، وهى القدرة على إنهاء الجدل العقيم، ووجهات النظر المتعارضة، والمصراع بالكلمات الذى يتحول أحياناً وكما نشاهد إلى صراع بالمكلمات!

وقد يسألنى أحدكم : قد يكون هذا صحيحا فى المجالات الحسية أو المادية ، لكن ماذا نصنع فى المجالات المعنوية أو المفاهيم المجردة ؟ وهنا أقول بكل صراحة : ينبغى أن نبتعد عن هذه المجالات ونتجنب تلك المفاهيم قدر الإمكان ، وأن نتجه بدلا من ذلك إلى تحسين احوالنا المعيشية والارتقاء بحياتنا اليومية حتى تصبح أكثر نظاما واتساقا وتحقق السعادة لكل أفراد المجتمع .

وهنا يبرز مبدأ المحاكاة : أى الاستفادة من كل التجارب الناجحة للمجتمعات التى سبقتنا فى الوصول إلى مستويات أرقى فى هذه الميادين . وهى بالمناسبة تتميز أولا : بتطبيق التجربة العلمية على كل مجالاتها ، وثانيا : بكثرة العمل ، وقلة الكلام ، الذى تدرك جيدا أنه لا يؤدى إلى أى نتيجة ذات أثر مفيد فى الحياة .

ويكفى أن أقدم لك مثالا من ألمانيا واليابان اللتين خرجتا من الحرب العالمية الثانية سنة 1945 وهما مدمرتان بالكامل ، ثم استطاعت كل منهما فى حوالى عشرين سنة فقط أن تصبح فى عداد الدول الكبرى فى العالم .

أما الصين وهى العملاق القادم فحين زرتها وجدت أهلها يعملون ويعملون ويعملون .. ولما يتكلمون إلما وهم على مائدة الطعام . وعندما سألتهم عن ذلك قالوا: إن الطعام ثقافة ، أى أنهم يتبادلون الأحاديث ويطرحون الطرائف وهم يأكلون ، ثم يقومون بعد ذلك لمواصلة العمل .

وفى الختام ، أود أن أشير إلى العبارة الشهيرة فى الثقافة العربية والمتى بطيب لنا جميعا أن نرددتها وهى : إن اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية . وأصالحكم بأننى لم أجد هذه المقولة تتحقق فى الواقع أبدا ، لآ على صاحب الرأى ولما على من يختلف معه ، بل على العكس وجدت أن الاختلاف فى الرأى عندنا يعدّ أحد أهم أسباب العداوة والبغضاء ، وما خفى كان أعظم .